٩٩/٩/٤/٢٨

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢٦٠
التاريخ ١٥/٢/٢٠١٤

الفكر العربي

مجلّة الإنماء العربي للعلوم الانسانيّة

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عبّاس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التوّمي الشيباني — د. عبدالسلام المسدّي — رئيس التحرير

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيّد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان
ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق (★)

صراع بين الحضارات

د. ناجي نجيب

مراجعة محمد حيدر

كان القرن التاسع عشر بوابة الدخول إلى عصر التحرر العربي، وكان عصر النهضة العربية الذي شهد الغزوات الاستعمارية العسكرية المقترنة بالغزوات الفكرية. وقبل ذلك، لا بد من ذكر الزخم الذي اتسمت به حملة « بونابارت » على مصر، حتى ليمكن القول إنها كانت حملة ثقافية قبل أن تكون عسكرية. وعلى أرض مصر استعر الصراع بين حضارة غربية وافدة وحضارة شرقية تقليدية في طور انحلالها، فكان أن سعى المستعمرون إلى اكتشاف جذور هذا الكيان واكتناه أسرار آدابه وعاداته وتقاليده، من خلال جهود المستشرقين والرحّالة الغربيين الساعين ابتغاء التمهيد للوثوب والسيطرة وتحقيق الأطماع والأهداف الاستعمارية... وبالمقابل، استعر في الشرقيين الطموح لتلمس السبل المفضية إلى بلوغ أسباب الحضارة الغربية المتقدمة. فكانت البعثات إلى أوروبا، وأول من غذّاها محمد علي باشا، وكان من أبرز رجالها: رفاعة الطهطاوي الذي وضع كتاباً للرحلة أسماه: « تخليص الابريز في تلخيص باريز »؛ ومؤخراً صدر للدكتور ناجي نجيب كتاب بعنوان: « الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق »، وهو دراسة مقارنة يقابل فيها بين رحلتي « الطهطاوي » إلى الغرب، والمستشرق « ادوارد لين » إلى الشرق (مصر)، واضع كتاب: « آداب المصريين المحدثين وعاداتهم ».

يعتبر كتاب الرحلة لرفاعة الطهطاوي « تخليص الابريز في تلخيص باريز »، أهم وثيقة أدبية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر. فهو أول مؤلف في العصر الحديث عن أوروبا. يكشف القناع عن محيا هذه البقاع، ويمثل أول (رواية تطور في الأدب العربي)، أي بمعنى أن المؤلف يأخذ بنظرية التطوّر الحضاري، ويفتح باب البحث في أسباب الرقي والتأخر. وهو مبحث شغل الفكر العربي بفئاته المختلفة، الاصلاحية الاسلامية والعلمانية في العقود الأخيرة من القرن الماضي. وعلى كثرة تقارير الرحالة عن مصر والشرق العربي في القرن التاسع عشر، لم يجد المؤلف مبحثاً يمكن أن يقارن من حيث المنهج والنوعية والأثر بكتاب المستشرق ادوار لين: « آداب المصريين المحدثين وعاداتهم » وتكمن أهمية هذا المؤلّف في كونه صار من المؤثرات الرئيسية في تشكيل نظرة الرأي العام البريطاني إلى

(★) د. ناجي نجيب: (الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق)، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨١.

مصر، وأصبح مدخل القارىء الانكليزي في العصر الفيكتوري إلى المجتمع المصري. والدور الذي أدّاه كتاب «لين» يرتبط بالاهتمام السياسي والاقتصادي الاستعماري بمصر، وبالصراع على النفوذ في هذه المنطقة الحساسة من العالم. ويُعتبر كتاب «لين» مصدراً من مصادر دراسة الحياة الاجتماعية والحضارية في مصر قبل وقوعها تحت المؤثرات الأوروبية.

تبدأ هذه الدراسة المقارنة بعرض مقدمات وأسباب كتابي الرحلة، والنصوص التي وردت هي نصوص تاريخية لها مقدماتها وأسبابها:

دوافع رحلة الطهطاوي: في كتابه، يؤكد الطهطاوي أن من دوافع إرسال محمد علي باشا المبعوثين إلى بلاد الغرب، هو تفوّق أهل هذه البلاد في «العلوم البرانية والفنون والصنائع»؛ وقد كان هدفه اكتساب هذه العلوم والمهارات ونقلها إلى البلاد الاسلامية لخلوّها منها. ويضع الطهطاوي أسباب البعثة في إطار من الايديولوجية التطورية، وتنعكس المؤثرات الأساسية لفكر رفاعة من خلال تبويبه لأطوار الحضارة ذات المراتب الثلاث:

١ ـ مرتبة الهمل المتوحشين، ٢ ـ مرتبة البرابرة الخشنين، ٣ ـ مرتبة أهل الادب والطرافة والتحضّر والتمدُّن.

وتلك المؤثرات تتمثَّل بـ: العقلانية الغربية وعالم المعارف والعلوم الحديثة التي تفتح عليها من مشاهداته وقراءاته في باريس، ثم ثقافته الأصلية الأزهرية، وتشخيصه العالم الاسلامي القادم منه.

يتأثر الطهطاوي بالفكر التنويري الفرنسي في القرن الثامن عشر، ويعكس هذا الفكر في مرحلة متأخرة أو في مرحلة الانتقال، حيث يتضمَّن التبويب لمراحل الحضارة تقييماً واضحاً لها، من منظور التفوُّق التكنولوجي والمدنية الاوروبية. وقد كان هدف رفاعة من الرحلة إلى الغرب هو «حث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنايع، فإن كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع». وأمّا ما كان مطلوباً من الطهطاوي حسب رغبة استاذه الشيخ حسن العطار وغيره من الأقارب والمحبين هو أن ينبه «على ما يقع في هذه السفرة، وعلى ما أراه، وما أصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة، وأن أقيّده ليكون نافعاً في كشف القناع عن محيا هذه البقاع، التي يقال فيها أنها عرائس الأقطار ولتبقى دليلاً يهتدي به إلى السفر إليها طلاب الأسفار...».

وإذا كانت هذه دوافع رحلة الطهطاوي إلى الغرب، فما هي دواعي رحلة «لين» نحو الشرق؟

كان هدف «ادوار لين»، كغيره من المستشرقين في تلك الفترة، هو مصر الفرعونية، والرغبة في دراسة هذه الحضارة القديمة التي بدأ الأقدمون في كشف الستار عنها، ثم انجذابه إلى الشرق كمجتمع حضاري قديم مغاير في طبيعته للمجتمع الاوروبي الحديث، ويقول المؤلف: «إن «لين» لم يحضر إلى مصر لمشاهدة ودراسة آثار مصر القديمة فحسب، وإنما جاء إليها باعتبارها «الشرق»، ووطن «ألف ليلة وليلة» كما يرى. وهو إذ يطأ أرض مصر، يرى نفسه «أشبه بعريس شرقي على وشك رفع النقاب عن عروسه التي لم يرها بعد»، كما كانت غايته أن يلقي نفسه بين أناس غرباء عنه، يتخذ لغتهم وعاداتهم وملابسهم، وأن يخالط قدر المستطاع من المسلمين فحسب، حتى يحرز أكبر تقدُّم ممكن في دراسة آدابهم». ويشرح «لين» هدف كتابه ومقاصده في المقدمة، فيقول: «كان هدفي تعريف مواطني معرفة أفضل بطبقات الأهالي لأمة من أهم أمم العالم، وذلك برسم صورة مفصَّلة لسكان أكبر مدينة عربية ـ القاهرة». أمّا المدخل الذي يدخل به «لين» في مجتمع القاهرة، فهو بوضوح كتاب «ألف ليلة وليلة»، حتى يجعل القصص تنطق صورة الحياة في المجتمع العربي في القرون الوسطى.

ورجوعاً إلى رفاعة الطهطاوي الذي ظلَّ وفياً للحضارة الاسلامية، ولم يستسلم للتيار الحضاري الغربي، يقول أنه

عاهد الله على أن لا ينحرف عن طريق الحق في جميع ما يقوله؛ وقال: «من المعلوم، أني لا أستحسن إلاَّ ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية». وعندما يتحدث عن «الغرائب»، فإنه يذكِّر القارىء بنظائرها ويقارن بينها وبين ما هي عليه، أو ما هو شائع عنها في مصر. والكثير من الظواهر والمعاني التي يورد رفاعة الحديث عنها، ليست غريبة على القارىء فحسب، بل هي أيضاً غريبة على لغته، وإذ ذاك لا بد له أن يقرِّبها إلى مدارك القارىء ووجدانه. وهنا، يواجه قضية اللغة وضرورة تيسيرها، وقضية الترجمة من بيئة حضارية إلى أخرى.

المقالة الرئيسية من كتاب الرحلة سلكت مسلك الدراسات الاثنوغرافية (العرقية). ورفاعة هنا، يعقد الفصل الأول منها لبيان موقع مدينة باريس ومناخها وطبيعة تربتها، وإلى ما هنالك من التفاصيل الجغرافية المناخية، استطراداً إلى المحاورات التي يعقدها بين علماء الدين حول كروية الأرض، دون أن يحسم الجدل بتسليم منطقي قطعي. ويذهب الطهطاوي في استطراداته كل مذهب، فيصف حالة الطقس في باريس وكيفية معرفة درجة الحرارة، ثم يفضي إلى وصف الانشاءات المدنية كالمجاري تحت الأرض والموصلة إلى النهر، فالصهاريج؛ ويقارن بين ماء «السين» وماء «النيل»، الذي ـ وكما يقول ـ لو جرت العادة أن يصار إلى ترويقه قبل استعماله، كما هو الأمر بالنسبة لنظيره نهر السين، لكان من أعظم الأدوية.

وعندما يتطرَّق رفاعة الطهطاوي إلى تدوين انطباعاته عن النظام السياسي الفرنسي، يبدي إعجابه الشديد بالنظام الدستوري الذي يقوم على العقلانية وعلى الحقوق الطبيعية للانسان، وإن أعوزته الشرعية الدينية، وهو ما يحقق العدالة، والكفاية والعمران؛ وذاك النظام يقوم على القانون وتوزيع السلطة، لا على الأفراد. ويفصِّل رفاعة نظام الملكية المقيَّدة، وتكوين المجالس التشريعية والنيابية، وينتهي إلى القول: إن عقول الاوروبيون قد حكمت أن العدل والإنصاف، وهو مرادف للحرية كما ورد ذلك في مواطن عدة من كتابه، لمن أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، وهو حكم يمكن تلمُّسه مقارنةً بما هي عليه الأنظمة العربية الراهنة، وما هي عليه أقطارنا من تخلُّف واختلال اجتماعي يحكم مسيرتها الحضارية؛ إذ إن كل حيف وظلم يقع على الانسان في أية صورة من الصور، هو تقييد لحريته وقدرته على ممارسة الحرية.

لكن، ثمة رأي للمؤلف يقول فيه: إن رفاعة ينظر إلى الدستور الفرنسي كجوهر وحكمة، أو كشيء ثابت، دون معرفة بشروطه وجذوره التاريخية ووظيفته التبريرية في يد البورجوازية الصاعدة، ولكن ما يبرِّر له إيمانه ذاك هو الظرف التاريخي آنذاك؛ وقد بهر الوافد من الشرق بضياء الحرية الذي أرسلته الثورة. وكل تعاطف يُغتفر في البداية ولحظة اللقاء الحضاري المبكر. ويخالف المؤلف الطهطاوي أيضاً، في مسألة الحرية الشخصية، وهي ركن من أركان الايديولوجية التحررية البورجوازية والنظام الدستوري التي يؤمن بها. إذ إنها مسألة تبدو غريبة عن طبيعة البيئة الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية في ظل المجتمع الزراعي الفيضي. ويربط المؤلف إعجاب الطهطاوي بالمادة الواردة في الدستور الفرنسي والملزمة بأن تؤدَّى الضرائب بالمساواة، أي: كل انسان حسب ثروته، وهي ما يمكن تسميتها بالضريبة التصاعدية. يربطها بالنظام الضريبي الذي رسخت صورته في ذهن الطهطاوي في ظل الحكم التركي. وأن النظام الضرائبي الفرنسي ليس كما يتصوَّر من العدالة والرسوخ، حيث تعرَّض لحركات وانتفاضات في القرن الماضي. وينبغي القول، إن هذه المادة من الدستور الفرنسي هي الوحيدة التي دعا رفاعة صراحةً إلى الأخذ بها.

ورغم إعجاب رفاعة بالنظام السياسي المتكامل، الذي يقوم على الحقوق الطبيعية وحقوق الانسان، إلاَّ أنه لم يتحدّث عنه كنموذج للنقل والاقتباس، وإنما يتحدَّث عنه

كنموذج حضاري آخر مغاير في أصوله للنموذج الاسلامي، وكنموذج يحقّق لأصحابه رغم ذلك، «العدالة» و«الحرية» و«العمران».

في معرض كلامه على الترجمة، وبمقارنته بين اللغة الفرنسية واللغة العربية، يخلص الطهطاوي إلى نتيجة مؤدّاها أن الاحتكاك الحضاري قد أبرز قضية اللغة والعلم، وقضية تراكم التراث النحوي العربي واستقلاله عن الحاجات التعليمية وعن حاجات الاستخدام العملي؛ وهو يجاري الصواب حين يخطّىء حدة التعصّب العاطفي للغة العربية، وهي من مقوّمات الفكر السلفي، ويردّ أقوال القائلين: بأن لا علم بدون معرفة اللغة العربية، إذ إن العلم كما يقول هو: «الملكة، ولا يرتبط بلغة بعينها...»؛ فاللغة في منظور رفاعة الجديد ليست غاية، وإنما أداة، أو كما يقول: «آلة للعلوم الحقيقية، عقلية ونقلية»، ويرى أن «صناعة الفصاحة والبلاغة من أشرف الفضائل وأعلاها درجة». ويقوم كتاب الرحلة على الإنشاء والترجمة في نفس الدقة، ويفتح للغة ميادين الاجتماع والعلوم، هذه العلوم التي هجرتها منذ قرون. وإن أهم ما تبرزه وتعبّر عنه هذه الترجمة الحضارية، كما يقول في كتاب الرحلة: هو الحاجة إلى تخطي الواقع والحواجز الرهيبة التي تفصل بين الخاصة والعامة. وبالتالي، الحاجة إلى تخطي تلك الدائرة المغلقة التي مورس فيها العلم في المعاهد الدينية، بعيداً عن مجالات الحياة الواسعة.

ينظر الطهطاوي إلى الحضارة الاوروبية، كمجموعة من المظاهر الحضارية؛ أمّا من حيث التعليل، فهو لا يتجاوز عادة السمات إلى تحليل المقوّمات والبنى الاجتماعية، ولكنه يطلق أحكاماً حماسية، كمثل قوله: «إنه على الرغم من تقدّم الفرنسيين في العلوم التطبيقية، إلاّ أن لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفةً لسائر الكتب السماوية. والمجتمع الفرنسي مجتمع دنيوي ليس له من النصرانية سوى الاسم».

لا ينسى رفاعة الطهطاوي في كتابه، قضية هامة أثارت عواصف الجدل في القرن التاسع عشر، ألا وهي قضية المرأة، فيعرض لأول مرة للمرأة الاوروبية في مجال العلم والاجتماع. وقد طرح هذه القضية في مختلف جوانبها (تعليم المرأة والاختلاف بين المرأة والرجل ومشكلة السفور والاختلاط)، وهو يقدم فقرات تتخلّلها صورة المرأة الفرنسية، يعارض بها ما هو شائع متداول في الشرق العربي من أحكام وتصوّرات عن المرأة الاوروبية والمرأة عامة.

القسم الثاني، من كتاب د. ناجي نجيب، يتضمّن عرضاً لأهداف وتفصيلات كتاب المستشرق ادوارد لين: «آداب المصريين المحدثين وعاداتهم». يقول المؤلف: ثمة تفاوت بين كتاب «لين»، وبين كتب المستشرقين الأخرى، بعض هذا التفاوت مرجعه اختلاف الفترة الزمنية للرحلة، وبعضه مرجعه التفاوت في النظرة والمنهج. وفي هذه الحقبة، تتباين دوافع الرحالة إلى مصر والشرق العربي، حيث تمتزج النزعات التنويرية والمعرفية، والحضارية الاستكشافية، والتطلعات التوسعية الاستعمارية، وشهوة المغامرة، وتتغلّب نزعة الهروب من المدنية وصراع الحياة فيها والشوق إلى حياة «الماضي» في الشرق. ويتخذ «لين» من موضوعه موقف الدارس الاجتماعيّ الاثنولوجي، مبتدئاً كتابه بملاحظات تمهيدية عن البيئة الطبيعية وعن مدينة القاهرة، ثم ينتقل إلى وصف معمار منازل الطبقات المتوسطة الموسرة، ثم إلى هيئة المصريين وملابسهم. ثم يعقد الفصل الثاني «الدين والشرائع»، مؤكداً في بدايته على مفهوم «الآداب والعادات»؛ ويعقد «لين» فصولاً ثلاثة للمعتقدات الشعبية، التي تسيطر على المصريين (الجن والأولياء والدراويش والرقاة والحواة، قراءة الطالع، ثم السحر والتنجيم، وعلم الكف)؛ ومنهج «الآداب والعادات» يهتم أكثر ما يهتم بمجموعة التقاليد والأفكار والأعراف والخرافات والأساطير، التي أخذت مكانة الأديان وصارت تحدّد مسالك الشعوب، كما يذهب الفلاسفة والباحثون

الاوروبيون في نهاية عصر التنوير وفي بداية القرن التاسع عشر خصوصاً.

يقول د. ناجي في معرض نقده لمنهج لين في كتابه: إن منهج «الآداب والعادات»، ينطوي في البداية على الكثير من الإجحاف بالمجتمعات غير الاوروبية، وقد طوَّر هذا المنهج لدراسة هذه المجتمعات بوجه خاص. أمَّا منهج لين، فهو منهج وصفي استدلالي، أكثر منه منهج تحليلي يقوم على المشاهدة والملاحظة والوصف التفصيلي المقترن بالرسوم النيابية، والأشكال.

في كتاب لين، تُمثِّل الطبقات الوسطى والعليا في القاهرة، إبَّان القرن التاسع عشر، نمط المدينة العربية. والقاهرة هي المدينة العربية الأولى في العصر الحالي. وليس هناك مكان آخر نستطيع أن نحصل فيه على معرفة ثابتة بأكثر طبقات العرب تمدناً. أمَّا الطبقات السفلى ـ حسب رأيه ـ فهي من البساطة بحيث لا يفيد العلم بها شيئاً كثيراً. وهكذا، فإن حظ الطبقات السفلى من الاهتمام ضئيل، وينحصر اهتمام لين إذن، بالطبقتين الوسطى والموسرة باعتبارهما حملة تراث التمدين العربي، وأنموذج المجتمع التقليدي الشرقي. وبعد ذلك، يتناول لين بالوصف أشكال البناء في القاهرة غير مهملٍ أدقَّ التفاصيل، وينتقل من ذلك إلى وصف هيئة المصريين (لون البشرة وتكوين الجسم) وملابس الطبقتين العليا والوسطى. ويورد القصص التي تبيِّن مدى احترام المصريين للعمامة بما لها من رمز ديني قدسي؛ كما يتطرَّق إلى شؤون الأطفال في الطبقات المتحضرة، إذ لا ينالون من العلم إلاَّ الأوليات المتمثلة بحفظ القرآن ومبادىء القراءة وقواعد الحساب الأولية، وهو يصف العلاقات الأسَرية، وما للرجل من سلطة وسطوة في بيته. ويصف العادات التي تحرم اجتماع الرجال بالنساء في مجلس واحد. كما يسهب في وصف عادات هذه الطبقات المتحضِّرة وآدابها في المأكل والمشرب، وفي النوم والصحو والصلاة. ثم يأخذ لين في سرد عادات الخطبة والزواج والطلاق والحياة الزوجية من جهة العرف والشرع؛ ويقول بالنسبة لتعدُّد الزوجات: أمَّا تعدُّد الزوجات الذي تبدو إجازته غير ملائمة لتحقيق الغرض الأساسي من إنشاء مؤسسة الزوجية، وممارسة أنبل القوى الذهنية والعمل على ترقيتها، فيجب أن تلاحظ أن الإسلام لم يدخل هذا التعدد وإنما حدّ منه. ولين هنا، يجتهد في تعليل إباحة تعدُّد الزوجات والطلاق بأسباب طبيعية، وبيئية.

حين يعرض ادوارد لين للسلطة السياسية في مصر، يقول: إن سلطة محمد علي باشا كانت مطلقة، ولكنه يستدرك بالقول، إنه لم يكن طاغية، ومن خصاله الصرامة لا القسوة الشريرة. وبعد هذه المقدمة، يتطرَّق إلى نظام القضاء في مصر ويعرض لطبيعة العلاقة بين الرعية والسلطة. أمَّا نظام القضاء، فهو كما يقول: ذاك السائد في ظل الدولة العثمانية، يرسل قاضي القضاة من الآستانة إلى القاهرة لمدة عام، حيث يشتري منصبه بصفة شخصية من الحكومة وبدون الاهتمام بمؤهلاته الشخصية. ومن هنا يدرك السبب في فساد القضاء، وتفشي الرشوة، وجور الأحكام.·.. وهو يورد القصص الواقعية، التي تؤكد هيمنة رجال القضاء. وتلاعبهم بالعدالة لتغذية مصالحهم الشخصية، ولكن ثمة قصصاً ركن إليها، كانت من نسج الخيال الشعبي المغالي، أو مشوبة بتأثيرات «ألف ليلة وليلة».

يعرض لين للحالة التعليمية، التي كانت محصورة في الأزهر الذي كان جامعة الشرق عامة، ويعرض لبرنامج ولنظام التعليم الذي كان سائداً فيه، وقد كان مقتصراً على علوم الدين، وعلوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض، والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث والفقه والحساب في حدود المسائل الشرعية، وهناك دروس الجبر والمقابلة والميقات. ويقول: لقد ندر من له دراية بالأدب القديم، وكان الجهل بتاريخ البلدان الاسلامية والبلدان الأخرى عمياً. ويخطِّىء لين الاعتقاد الشائع بأن العرب يعادون العلم على اختلاف أنواعه، ويردُّ لهم الاعتبار اعترافاً

للعرب الأوائل بالريادة في كافة حقول العلم والطب. كما يسجل لين تدهور التعليم الازهري في مصر منذ الحملة الفرنسية، وبالتالي تراجع مكانة العلماء الاجتماعية. أمّا بالنسبة للمكتبات في القاهرة، فكانت ملحقة بالمساجد، ومعظمها يتألف من كتب التوحيد والفقه واللغة، وأن هناك العديد من النسّاخ الذين يتعيّشون من نسخ الكتب.

في مجال تحديده لسمات المجتمع الأدبي، يشير لين إلى التناقضات التي يتخبّط فيها المصريون، من حيث ولعهم بالموسيقى، ولكنهم يرونها مثل الرقص غير جديرة بأن يعكف لدراستها إنسان عاقل لأنها تقود إلى المرح واللهو والرذيلة، وهذا التناقض يشمل بقية الفنون. كما يذكر لين الحلقات الأدبية الخاصة، كحلقة الشيخ محمد شهاب التي كان يؤم مجالسها، وليس ثمة من نتاج أدبي يذكر. ويعتبر أديباً كل من حفظ القرآن أو الجزء الأكبر منه، بالإضافة إلى قصيدتين أو ثلاث من القصائد الشهيرة. وأمّا المجتمع الأدبي للعامة فهو «المقهى»، وفي القاهرة أكثر من ألف مقهى. ويذكر لين كيف يغشى القصاصون المقاهي الرئيسية في القاهرة وغيرها من المدن في ليالي الأعياد الدينية، ويسامرون الناس بأسلوب جذاب مقبول، وهم يدخنون الشبك ويرتشفون القهوة؛ وأما بالنسبة للرواة: فإن الشعراء أكثر طبقاتهم عدداً، وهم المتخصصون في قصة «أبي زيد الهلالي» وعددهم نحو خمسين، ويليهم طبقة «المحدثين» ويروون سيرة «الظاهر بيبرس» وعددهم نحو الثلاثين، ثم طبقة العناترة أو «العنترية»، وهم الأقل عدداً. ويلاحظ هذا المستشرق أن الجمهور المصري لا يهتم كثيراً بـ «ألف ليلة وليلة» في حقبته الآنية؛ ويعزو ذلك إلى تغيُّر ذاك الجمهور على مر العصور. ويبدو اهتمام لين الشديد وفقاً لمفهوم الآداب والعادات بذاك القصص الشعبي خاصة، فيضمّن كتابه نماذج من سيرة بني هلال، والظاهر بيبرس، والأميرة ذات الهمة. ولا ينسى لين تلك الطبقة من المهتمين بالتمثيل وممارسيه والتي يدعى أصحابها بـ «المخبطين» وهم (الحواة والرقاة، والعرافات والقرادتية)، وثمة أيضاً العالمات اللواتي يحيين الأفراح. ومنهن فئة قليلة تتمتّع ببعض المناقب الأدبية، وهن جديرات بأن يسمين عالمات بالمعنى الصحيح، ومنهن أيضاً كثيرات من طبقة دنيا يرقصن في الحريم أحياناً؛ وقد اختلط الأمر على الرحالة الاوروبيين، فأطلقوا «عالمة» على الراقصات العاديات.

خلاصة هذه الدراسة المقارنة الجادة للدكتور ناجي نجيب: «أن رفاعة الطهطاوي يؤكد جوانب الحضارة المادية والتقدُّم المادي، ويتطرق إلى مضامين تلك الحضارة السياسية والفكرية، ومظاهرها الاجتماعية الليبرالية المتقدمة. وهو لا يناقش قضايا فوقية، وإنما قضايا محسوسة مباشرة. وقد أقبل الدارسون على رفاعة كأب للفكر الليبرالي العربي، ولا يقلّل من قدره أنه لم يصل إلى «نظرية العقد الاجتماعي»، أو إلى أن يدعو دعوة واضحة منظمة للفلسفة الليبرالية. وبديهي، أنه لم يعرف من الليبرالية في عصره ما عرفه المثقفون العرب اليوم. أمّا التطوُّر الذي كان يراه، فهو التطوُّر نحو «التحضُّر والتمدُّن»، ولم يكن يراه بمنظور التطوُّر الاجتماعي التاريخي والبشري العام.

أمّا لين، فإنه يختلف عن رفاعة تماماً، إذ إنه لا يناقش بقدر ما يرسم ويصف وينقل ويسجل ويستوعب، فهو أشبه في منحاه بالمصوِّر الفوتوغرافي الذي يلتقط مناظر الأشياء والحياة، وكأنَّ همّ لين كان منحصراً في «أرشفة» مجتمع قديم أو القطاع المتحضِّر منه قبل أن ينقرض. لكن ذلك لا يتعارض مع تلك النظرة الجمالية التي ينظر بها المؤلف إلى الكثير من مظاهر المجتمع المصري. ويقول إنه لمن الخطأ إدخال كتاب ادوارد لين في حيِّز الأبحاث الاجتماعية، وكذلك كتاب الرحلة لرفاعة الطهطاوي.